الفصل الثانى

اليتيـــم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الضحى - الآيات ٦: ١١]

(١)

لا يـدرى عبـد الله سـببا لذلـك الحزن الذى سـكن قلبـه. منذ عرف بأنه مسـافر إلى الشـام فى تجارة لقومه.

فعلـى رغـم هربه من قيظ مكة إلى صيف الشـام الرطب، وعلى رغم المغنم المالى الذى سـيعود عليه، وعلى رغم كون اختياره من بين آل هاشم لهذه الرحلة يعد شرفا كبيرا له: فهو لم يزل بعد على مشارف العشـرين من عمره، وهناك من إخوته وأبناء عمومته، من هم أكبر منه سـنا، وأعظم حنكة، وأكثر منه اسـتحقاقا لهذا الشـرف؛ ثم إن هذه الرحلة لها تميز خاص، فهى أول رحلة تخرج من مكة إلى غيرها من القرى، بعد هلاك أبرهة وجنده، وهو أمر سوف تتساءل عنه الأقوام، وتحيط أصحابه من القرشيين بما هم أهل له من الكرامة التى أظهرها الله فيهم.

لذا كان القرشـيون يعرفون بأن وصول قافلتهم إلى الشـام، سـوف يكون مثار اهتمام أهلها، ويجعل أفرادها الأولى بالرعلية من دون كل قوافل الدنيا التى تفد إليهم.

وهكذا سـيكون عبد الله وأقرانه محط الأنظار، وهو ما يدفع بدفء الفخار فى الأوصال، فيثير فيهم الحمية والإقبال على السفر، ويهون عليهم من آلام البعاد عن الأهل.

وعلى رغم معرفة عبد الله بهذا جميعه، فإن المشاعر الحزينة، كانت تغلف كل كيانه، وتنثر الحزن والكآبة فى حنايا نفسه.

راح عبد الله يبحث فى أعماقه عن سـبب هذا الشـعور، الذى يشـذ به عمن حوله من مظاهر الفرح والحبور؛ فلعله حزين لفراق زوجته آمنة وحنة العرس مازالت تضمخ كفيها؟.. ولم لا يكون سبب ذلك هو فراقه للجنين الذى بدأ يتحرك فى بطنها، وهو يغادره ولا يعرف له جنسـا ولا كنية؛ إنه وليده الأول، ويكفى أى أب أن يعرف بأنه سوف يرزق بالخلف فلا يتلقفه بين يديه، ولا تكون عيناه أول من تحتضن ملامحه بين الجفنين، لتنمو داخله لحظة السفر كل مشاعر الكره لهذا الرحيل..

ترى كيف ستكون ملامحه؟..

هل ستكون مثل ملامح أبيه، أو ستكون كملامح أمه؟!.

ترى هل سيتحقق ما قالت به آمنة، من أنه ستضيء لمقدمه قصور بصرى بالشام، وهل سيرى هذا النور الذى سيغمر الكون وهو هناك؟!.

والهفتاه على صغيرى.

فاض الوجد بعبد الله، فقال يوصى زوجه:

– يا آمنة أوصيك بوليدنا خيرا: كونى له حبا، وأرضعيه شجاعة وفخرا.

وقال لأبيه وهو يضمه إلى صدره مودعا:

– يا أبت أوصيك بوليدى خيرا. كن له خير أب: وخير معين على قدر ما سوف أغيب.

ثم أسرع عبد الله مبتعدا قبل أن تفيض عبراته.

تحركت قافلة الجمال إلى خارج مكة، وكان القرشيون على عادتهم فى وداع قوافلهم، قد تجمعوا رجالا ونساء، أطفالا وشيوخا، يهزجون ويتنادون.

وحين اختفت ملامح الأحبة مبتعدة، حتى صارت خيالات ضبابية مبهمة بلا ملامح ولا تفاصيل، كفت أصوات الدفوف عن الدوى، والتصقت أكف الضاربين فوق جلدها؛ وكأنها تتحسس جلد من رحلوا.

لحظات، ولحظات من المتابعة؛ ثم بدأت الأرجل تشعر بثقل الأجساد فوقها؛ فتحرك الجمع عائدا إلى مكة بأحزان من انفصلت عنهم أكبادهم، ليواجهوا المجهول الذى يتربص بمن فارقوا. فالطريق إلى الشام شاق.. شاق، والمخاطر فيه جمة: فهى إن لم تأت من عصابات القتل والنهب والسلب، جاءت من وحوش الصحراء، أو من الصحراء ذاتها برمالها المتحركة التى تبتلع من يلجها من إنسان أو حيوان، أو من خداع مسالكها، فإذا ما حادت قافلة عن الدرب هلكت.

توارت أشعة الشمس مسرعة، وكأنها تؤكد أن الرحيل من سمات الحياة، فها هى ذى خيوط النور تنسحب وتأفل، لتترك خيوط الظلمة تنفذ وتسيطر. وما أقساها ظلمة الليل على النسوة اللائى فقدن الائتناس بغياب الولد أو الزوج، فالنوم يمسى كافتراش شوك الصبار، فيصير النوم على رمال الصحراء فى الهجير أهون منه بكثير.

كانت آمنة تعيش لحظات وحدتها، تتأمل ذكريات زواجها من عبد الله، وكيف جاء عبد المطلب سيد قريش يطلبها لابنه من أبيها. وكيف أدخلت طلعة عبد الله من النظرة الأولى البهجة على قلبها، ولما عرفت بأنه عبد الله المفتدى، اشتعل قلبها حبا، وامتلأت فخرا بأن تكون زوجا لأغلى شباب قريش وأعزهم: فمن من بين شبابها جميعا تم فداؤه بمائة من الإبل، غير عبد الله؟.. ومن من شباب قريش تنافست عليه بناتها، ورفضهن جميعا، بمن فيهن تلك اليهودية ذات الحسب والنسب، والتى عرضت عليه أن تهبه مهرا مائتين من الإبل ليطأها، غير عبد الله: ثم أتاها هى، وهى وحدها من دونهن جميعا. وتزوجها، وأودع فى أحشائها أغلى هدية..

ولكن ها هو ذا عبد الله قد بعد عنها، وآه يا عبد الله من فراق الأحبة.

ولكن لم اختاروك أنت من بين شباب قريش، وهم بالمئات، ولم يختاروا غيرك؟.

هل يريدون منك أن تحكى فى الشام قصة الفداء، أو يريدون أن تروى قصة اندحار أبرهة؟!.

ولما فاض بآمنة الوجد، قامت من جلستها متجهة إلى فراشها، فلعل النوم مدركها برحمة الله، وأثناء بحثها عن النوم راحت تتلمس ما ببطنها، فلقد كانت تجد فى ذلك الجنين الذى حملته هونا على هون الأمن والراحة، وقبل أن يستغرقها النوم، تمتمت بمكنون قلبها: فتنهدت قائلة:

- لهفى أنا على عودتك يا عبد الله.

٢

كان عبد الله فى طريق عودته من الشام إلى مكة، وقد ساد أفراد القافلة حالة من الحبور والفرحة، فلقد باعوا ما كانوا يحملونه للبيع، وربحت تجارتهم ربحا وفيرا، واشتروا ما طلب منهم شراؤه بأرخص الأسعار، مما يحتاج إليه أهلهم بمكة لأنفسهم أو ليبيعوه لأهل اليمن فى رحلة الشتاء، ولقد تم هذا فى أيام قليلات، هى أقل بكثير مما قيل لهم إنها استغرقت القوافل السابقة.

ركب من ركب الجمال فوق الأحمال، وسار على قدميه من فضل المسير، وارتفع حداء قائد القافلة، يستحث الإبل على الإسراع، ويبثها شوقه إلى الديار والأحبة الذين فارقوهم منذ أسابيع؛ كان الصوت شجيا، أثار فى عبد الله مشاعر الألم والحزن التى كمنت بداخله منذ غادر مكة، وباعدت بينه وبين أماكن اللهو والسمر، وجعلته مصدرا للكآبة بين أقرانه، ثم ها هو ذا غناء الحادى يؤجج مشاعر الحنين لأولئك الذين فارقهم على غير هواه، بدلا من أن يبعث فى نفسه الفرحة بقرب العودة، فعبد الله لم يعد يطيق استمرار البعاد ولو للحظة واحدة، حتى إنه كلما تطلع ببصره إلى السماء يتمنى لو كان صقرا يشق الفضاء بجناحيه، فيقطع المسافات التى تفصله عن آمنة فى طرفة عين، بدلا من هذا الزحف البطىء للإبل الذى يأكل العمر أكلا.

غشيت عينى عبد الله سحابة من الدمع؛ فراح يخفيها بطرف عباءته عمن حوله، بينما أخذت أصابعه تخترق كومة الأقمشة التى يجلس فوقها، متحسسة ملمس الحرير، فذاك هو الثوب الذى اشتراه لآمنة، وهذا ملمس البردة الدمشقية التى تخيرها من بين عشرات لابنه، الذى لم تنقطع صورته التى تمناه عليها، عن عينيه فى صحوه ونومه، وفاضت دموع عبد الله مرة ثانية، وملأه شعور قوى بأنه لن يعود إلى داره، ولن يرى زوجته، ولن يشهد لحظة مولد ابنه!!.

وعندما لاحت مشارف طيبة للعيون، ارتفعت حرارة جسد عبد الله، وبدأ يشعر بآلام شديدة تنمو وتشتد وتنتشر داخل جسده وتوهن قواه، وما إن وصلت القافلة إلى طيبة حتى انهار تحت شدة المرض، ولم يعد قادرا على مواصلة طريق العودة.

قرر سادة القافلة أن يخلفوه عند أخواله من بنى النجار بطيبة، ليعتنوا به حتى يشفى ويستطيع مواصلة السفر، ولما تم لهم ما أرادوا، ومع أول خيوط الظلام، بدأت القافلة تشق ليل الصحراء إلى مكة،

ولم ينس عبد الله، على رغم الآلام الرهيبة التى تفتت عظامه وتسحقه سحقا، أن يرسل مع الذين كان حظهم أحسن منه، بالهدايا التى اشتراها لآمنة وللوليد.

٣

طاف البشير بدور قريش يعلن عن قرب وصول القافلة، ولما آن الأوان، خرج سكان القرية عن بكرة أبيهم يستقبلون بالفرحة الذين طال الشوق إلى عودتهم، معبرين عن فرحتهم بالغناء، تشاركهم الدفوف والأكف فى ضبط الإيقاع.

جالت العينان الكليلتان فى لهفة بالموجودين، مرات.. ومرات، بحثا عن عبد الله فلم تبصرا به بين الوجوه، ثم لم تعد هناك طاقة على الصبر، وانفجر اللسان بالسؤال:

– أين عبد الله، أين ولدى؟!.

سكت سادة القافلة للحظات، وحين تكرر السؤال، أجابوه مشفقين على الكهل: فهم يعرفون شدة حبه للغائب، قالوا:

– خلفناه عند أخواله بطيبة.. مريضا.

تباطأت دقات قلب آمنة، حين سمعت بغياب زوجها، انسحب الشوق وانفعالات اللقاء، وتحول وجيب القلب إلى عويل مكتوم، لكنه انفلت فى صرخة مُدوية حين ناولوها هداياه، وأوجعها سؤال دوى فى أعماقها..

أيولد ولدى فلا تشرق بالرضا فى وجهى بسمة عبد الله؟.

بكت وتوسلت إلى عبد المطلب أن يرسل إلى طيبة بمن يطفئ نار القلق على الغائب، ولم يكن الشيخ فى حاجة إلى من يستنفره، فلقد كان فؤاده ينتفض ألما بعد أن ذبحه خبر المريض ذبحا، صاح باللوعة قائلا:

– بأبى أنت وأمى يا عبد الله.

ثم أسرع إلى مجلسه بالكعبة، فوجد أبناءه قد تجمعوا فى حزن يتناجون، وقد أصابهم النبأ بالغم فلم يعبئوا بما وصلهم من مال وفير، ولم يفضوا أغطية ما ابتاع لهم أخوهم من بضاعة طلبوا منه شراءها من الشام، وكانوا لا ينقطعون عن الحديث فى لهفة حول موعد وصولها، وكيف لهم أن يفرحوا وقد أصر عبد الله على أن يرسل مع القافلة مالهم من متاع ومال، وكأنه يقول لهم: لقد برأت ذمتى أمامكم، ولن أعود.

قال عبد المطلب:

– أخوكم مريض عند أخواله بطيبة، وقلبى لا يجد راحة فى بعاده، فبماذا تشيرون؟.

قال عبد العزى معقبا فى همس كالفحيح:

– أليس هو من كنت تريد ذبحه يا أبانا؟!.

زجره الحارث، يأمره بالسكوت، قائلا:

– صه.. صه، واللات والعزى، إذا كان هناك من يستحق الذبح، فهو أنت يا ميت القلب.

أشار عبد المطلب على أبنائه بالصمت، فلقد رأى بوادر خلاف توشك أن تدب بينهم، وكان عليه أن يفاجأهم بما يربك عقولهم، ويوقف المشاحنة بينهم، فأعلن قائلا:

– إننى راحل للحظتى إلى حيث ولدى.

ولكن الحارث اعترض قائلا:

– يا أبت إنك شيخ كبير، ونحن عصبة، فإن تأذن لى فإنى ذاهب إلى حيث تأمر.

قال عبد المطلب:

– بورك فيك يا حارث، اذهب أنت إلى أخيك، فأنت أحقنا به، فلقد قاتلتنى يوم الذبح حتى تنجيه.

٤

ذهب الحارث إلى طيبة.

وكما ذهب عاد..

ولكن شتان بين الحال والحال:

لقد ذهب يرافقه الأمل والشوق، الأمل فى أن يجد عبد الله قد شفى، والشوق لرؤية أحب الإخوة إلى قلبه.

وعاد والألم والحزن يعتصران فؤاده: الألم من أجل أخيه الذى رحل صغيرا، فلم يتمتع بحياته أو يهنأ بها؛ والحزن من أجل الأب الذى جعله الأمل فى عودة الغائب لا يطيق مكوث الحارث بينهم للحظة، بعد أن أعلن عن استعداده للسفر، وطالبه بسرعة الرحيل وسرعة الإياب، وزاد من مرارة الموقف ذلك اليتيم الذى ذاق مرارة اليتم وهو بعد جنين فى بطن آمنة، وآه لو جاء أنثى فإن أكثر الأعمام لا محالة سيسارعون إلى مواراتها التراب، فمن سيكون حاميا لها من بعد عبد الله.. وقد مات.

حين لاح الحارث مقبلا من بعد يقدم رجلا ويؤخر الأخرى، هش الشيخ لمقدمه، حتى أوشك أن ينهض لاستقباله، ولكن ساقيه لم تسعفاه، فظل جالسا يترقب، ولما اكتشف أن الحارث يقف صامتا دون أن يذكر أخيه، جف لعابه، وتشققت حنجرته، وتحشرج صوته سائلا:

– أراك قد عدت وخلفت أخاك؟!.

اشرأبت الأعناق منتظرة ما سيقال، حاول الحارث أن يناور ويؤخر الرد، تحرك يبحث عن مكان يجلس فيه، وإن كان وجهه الحزين يفضح حقيقة ما حدث، لكنه الأمل الذى يمسح كل حقيقة لا يجهر بها، جعل الأب يقول، يستعجله:

– لمَ لم تأت بعبد الله يا حارث؟!.

غمغَم الحارث بكلمات متباعدة لا تكاد تبين:

– لقد اشتد عليه المرض، وأعجز الأطبة..

فى لهفة اليائس المشتاق لأن تدمره قسوة ما يخفيه الصمت، قال عبد المطلب:

– قل الحقيقة، وأوجعنا بها يا حارث.

خرجت الكلمات من فم الحارث فى سرعة، فهو على حال من يحمل أثقالا ترهقه، ويريد أن يرمى بها ليستريح:

– لقد مات عبد الله، ودفنه أخواله بطيبة.

أصابت كلماته عبد المطلب بصدمة عظيمة، فغاية ما كان ينتظر سماعه، أن عبد الله لم يبرأ بعد من مرضه، أما أن يكون قد مات، فهذا ما لم يكن فى الحسبان، لذا فح متوجعا يقول لائما الحارث:

– ليتك ما أطعتنى، ليتك ما أجبتنى، ولا قلت.

وشهق الشيخ شهقة عظيمة، واتسعت حدقتاه، واحمر وجهه احمرارا شديدا، حتى ظن أبناؤه أنه هالك لا محالة، ولكنه تنهد تنهيدة طويلة وصرخ فى التياع:

– واذبيحاه.

وانكفأ وجه الشيخ مدفونا بين كفيه الكبيرتين، وأجهش فى البكاء.

هنا فقط أدرك الأبناء أنهم لم يعودوا عشرة، وأن أخا لهم قد مات، فسالت الدموع تبلل شعر الذقون.

٥

كأنما وصلت صرخة عبد المطلب إلى أذنى آمنة، ففى ذات اللحظة انهمرت دموعها وهى لا تدرى لبكائها سببا، ولا لانقباض قلبها تبريرا، وحين جاءتها النسوة صاخبات نائحات معزيات، عرفت لدموعها تبريرا، ولانقباض قلبها سببا، فزاد نحيبها، وراحت تنظر إلى ما فى بطنها، وهى تولول قائلة:

– وا زوجاه.. وا وليداه.. وا يتيماه.

زادت كلماتها نواح النسوة،فلقد تجاوبت أعماقهن مع أنها، فهن يعلمن حال اليتيم فى قريش: فلا ميراث ولا حقوق، ولا رعاية، وآه.. آه لو ولدت آمنة بنتا، فإن وليدتها موءودة بلا رحمة، ولا شفقة بمن حملت وحلمت.

وأصبحت الباكيات النائحات، يبكين حالهن لا حال آمنة، وإن كان نداء الأعماق واحدا..

يا لغلظة قلوبكم يا رجال قريش، تعطون للعبيد حقوقا أكثر مما تعطونه لنسائكم.

بعد وقت طال، انفض موكب النائحات من حولها، وجدت آمنة نفسها وحيدة، ذاهلة، لا تكاد تصدق أن ما سمعت ورأت حقيقة واقعة، أو أنه حدث وكان..

أمعقول أن عبد الله قد رحل عن دنياها إلى الأبد؟!.

أهكذا سريعا تصبح أرملة لا عائل لها، ولا بعل، وهى فى وضع تكون فيه المرأة أحوج ما تكون للزوج.

انفرط قلبها حزنا، ملأتها قتامة كادت تفجر كيانها،ولكن تلك المخلوقات التى تأتيها منذ حملت، وتشعر بها تحيطها وتحوم من حولها، فأنست بها وأصبحت تهش لحضورها، بعد أن كانت تخافها ويقشعر منها جلدها، فهى لا تراها ولكنها تشعر بوجودها، وتشم رائحتها عطرا رائعا يفوق رائحة المسك؛ ها هى ذى تأتى لتملأ بالعطر خياشيمها، وبالسكينة نفسها، حتى إنها استكثرت على نفسها حال الهدوء الذى أصبحت عليه، وخجلت منه وهى على ما هى عليه من حال الحزن، وقد ألح عليها السؤال..

إلى أى مصير ستأخذ ابنى أيام اليتم؟.

وجاءتها إجابتهم سريعة..

اطمئنى، ولا تأسى عليه.

قالت..

أخاف عليه من ظلم القرشيين، وغلظة قلوبهم، وهو ابن واحد وحيد بلا نصير من الإخوة، ولا سند من الأب.

– لا تخافى فهو سيكون سيد هذه الأمة.

– ابنى سيد الأمة، اليتيم؟!!.

– يتمه لحكمة، هو يتيم حتى لا يكون لإنسان فضل عليه، فهو فى فضل الله ورعايته.

– أإلهكم من أمر بهذا ؟!

– إلهنا وإله آبائنا، وإله وليدك الذى سيدعو إلى عبادته.

– عبادة من؟.

– الله الواحد، خالق كل شىء.

– الله.

– الرزاق، الكريم، الرحمن، الرحيم، المحيى،المميت، يختص برحمته من يشاء بما يشاء، ويجتبى من يشاء لما يشاء، وهو على كل شىء قدير.

– سبحانه.

– سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

– قلبى يقول لى كلما حضرتم ألا أخاف عليه، ألا أخاف؟.

– أبعد ما عرفت تخافين؟.

– لا والله، ما لى أن أخاف.

انتابت آمنة فرحة عظيمة، حتى إنها تمنت لو ترى ابنها بين يديها، وقد كبر وساد قريشا، تساءلت في شوق..

– متى يجئ؟.

– الاثنين، ذلك القابل؛ فإذا ما أهل قولي: أعيذه بالله الواحد من شر كل حاسد.

٦

اليوم: الاثنين – الثاني عشر.

الشهر: ربيع الأول.

السنة: ٥٢ قبل الهجرة.

يا أيها الليل ما أعجبك..

رأيناك قدر ما رأينا..

ولكن على مثل هذه الحال ما رأيناك: فنجومك لا ترسل بنورها على حياء كما تعودنا، ولكنها نجوم تتألق وتسطع متوهجة وكأنها الثريا، حتى بدا نور القمر في مواجهتها واهنا، ثم ها هي ذي النجوم تقترب من الأرض: تدنو وتتدلى، حتى باتت من الأرض قاب قوسين أو أدنى.

حين رفع الكاهن بصره إلى السماء، ورأى حالها، صرخ ملتاعا، يقول:

– إنها والله ليلة مولده.

ثم أخذ يخور ويمور ويزأر، ويجأر قائلا:

– ولد الهادي البشير، ولد نبي الأمة الخاتم، ولد إمام الحامدين.

منذ زمن ليس ببعيد، جاء هذا الكاهن، واستقر بين أهل مكة لا يغادرها، وهم لا يعرفون له بلدا، ولا اسما، ولا يدرون لإقامته بينهم سببا، وظلت غرابة تصرفاته، وتقلب أطواره، تلفت أنظارهم، وتشد انتباههم إليه، وإن ألفوا أفعاله، وأكبروا فيه اهتمامه بحياتهم، وكثرة سؤاله عن أحوالهم، وكان أكثر ما يسأل عنه، ويجذب اهتمامه خبر من يرزقون بالبنين، ثم كشفت فراستهم ستره، وأيقنوا أنه يترقب طفلا بذاته يعرف بشارته.

فلما كانت ليلتنا هذه، أصابه ما أصابه، وخرج عن وقاره المعهود، وراح يجري في الطرقات، يعترض طريق كل من يراه سائلا في صراخ مخيف:

– هل ظهر فيكم الليلة مولود؟.

فيجيبونه وهم ينأون عن طريقه:

– والله ما نعلمه.

ولم تكن إجاباتهم لتطفئ من ظمأ بحثه عن الحقيقة التي يعلم أنها واقعة في هذه الليلة، إن لم تكن قد وقعت، فكل ما يرى حوله من المظاهر والآيات يؤكد مولد النبي المنتظر.

وكما أثارت العلامات مشاعر الكاهن وهيجته، أثارت حاله حب الاستطلاع لدى القرشيين، فراح من سألهم يسألون من يرونه، قائلين:

– ألم يرزق أحد بطفل؟.

حتى علموا بمولد طفل بدار عبد الله بن عبد المطلب، أسرعوا إلى الكاهن يزفون إليه البشرى، قائلين:

– لقد ولد اليتيم.

صاح فيهم متوسلا:

– خذونى إليه.

قالوا له:

– واللات والعزى، إنا لأخذوك إلى جده.

(٧)

جاءت أم أيمن جارية آمنة إلى عبد المطلب بالكعبة، مهللة تزف إليه البشرى، قائلة:

– يا سيد قريش، لقد رزقت بابن هو خير عوض لك عن ابنك عبد الله.

رفع عبد المطلب يديه إلى السماء شاكرا لله فضله، ثم أسرع مع الجارية إلى بيت آمنة، وهو يقول فى نفسه: يا لفرحة قلبى بمولد ابنى.

بالحب أودعت آمنة وليدها يدى جده، فلما أخذه منها ذاب عبد المطلب وجدا، وقد شعر بكل ذرات جسده تتقافز وتتحول إلى حب عظيم لذلك القادم للدنيا يتيما، حتى لقد فاقت مشاعره فى هذه اللحظة، ما شعر به لحظة احتضن عبد الله أحب الأبناء وأعزهم، بعد أن أنقذ من الذبح، وتم الفداء.

لقد تأجج كيان عبد المطلب بالوجد، فراح ينتفض، وتصطك أسنانه، وكأنما أصابته الحمى، حتى خاف أن يسقط الطفل من بين يديه، فضمه إلى صدره بقوة، وهو يتمنى لو ينشق صدره، ليحتويه بداخله بعيدا عن كل تلك الدنايا، فيحميه ويحتمى به من غدر الأيام.

كانت آمنة ترقب حال الجد بعين الرضا، وهى تطمئن نفسها قائلة:

– والله إن ابنى ليجتاح القلوب بحبه، وإن له ربا يحميه.

ولما هدأ روع عبد المطلب، قصت عليه آمنة ما جاءها من الهواتف، وما رأت من رؤى، وعبد المطلب ينصت إليها بكل جوارحه، فلم يقاطعها بكلمة، ولم يعارضها فى قول قالته، هانئ بما يسمع، منتش بما يحمل بين يديه، وحين فرغت آمنة من كلامها، قال:

– هو بإذن الله محمد، وهو أحمد، ومحمود، وما رأيت يا آمنة هو تفسير لرؤياى التى رأيت فيها أنه قد خرجت من ظهرى سلسلة من فضة لتمتد عبر السماوات والأرض.

– سبحانك يا فعال لما تريد، يا منطق مخلوقاتك بالحق حين تشاء.

– سبحانك يا من أنطقت عبد المطلب بما أمرت، فأسمى حفيده محمدا. وهو الشيخ الذى أنجب عشرة من الذكور، فلم يخطر له أن يسمى أحدا منهم بالاسم الذى اخترته لنبيك: فهو إمام الحامدين لله.

– وكيف لا يكون إمام الحامدين محمد.

– وكيف لا يفعل عبد المطلب هذا، وقد جعلته يسمى الأب عبد الله، حتى يكون الابن بالتبعية هو أيضا عبدا لله، وهكذا جعلت محمدا: محمد عبد الله.

– سبحانك يا مالك الملك، أبنت طريق نبيك منذ مولده.

– فهل من متبصر، ليبصر؟.

حين هم عبد المطلب بالخروج إلى الكعبة ليطوف باليتيم، إذا بالكاهن يقبل وخلفه قد تجمع الناس بالعشرات، فما إن رأى الوليد بين يدى عبد المطلب، حتى انقض عليه يتفحصه فى لهفة، ثم استدار إلى الناس يصيح قائلا:

– والله إنه هو أحمد، وإنه لجاعل لكم ولقريتكم شأنا وأى شأن.

ثم خر الكاهن على الأرض مغشيا عليه.

اخترق عبد المطلب الجموع الملتفة حول جسد الكاهن، مبتعدا بحفيده وهو يحمله بين يديه، بعيدا عن هذا الصخب، وفى اعتزاز كان يقول لكل من يقابله:

– لقد رزقنا محمدا.

طاف عبد المطلب حول الكعبة بمحمد سبعة أشواط، مهللا مكبرا، متوسلا لله أن يحمى حفيده من كل شر وسوء، منشدا ما تفيض به عواطفه من جميل الشعر، وحين انتهى نحر العقيقة ووهبها لفقراء قريش ولأثريائها.

(٨)

مرت شهور..

وكعادة شرفاء مكة مع أبنائهم..

حملت أم أيمن محمدا وصحبتها سيدتها آمنة، واتجهتا إلى سوق مكة، حيث تتجمع المرضعات من قبيلة بنى سعد بن بكر ليصحبن مواليد سادة قريش معهن إلى مضاربهن، حيث الهواء النقى واللسان الفصيح، فيشب الأطفال فى جو يساعد أبدانهم على أن تنمو معافاة، وعلى سلامة لسان تجعل منهم الفصحاء، نظير أجر يقضى إليهن، ولقد كان عامهن هذا غير أى عام آخر، فلقد انقطع المطر وامتنع الماء، وندر الكلأ فجفت ضروع الأغنام، وهزلت أسنمة الإبل، وأصبح العثور على الطعام أمرًا نادرًا شحيحًا، لهذا كانت مرضعات بنى سعد متلهفات على أن يصبن خيرا من وراء أطفال قريش، فرحن يتنافسن على حضانة من يبدو عليهم الغنى من الأطفال؛ وحين عرضت آمنة ابنها عليهن أبين أن يأخذنه، فما حملته آمنة معها من زاد يبدو قليلا، ويشى بضيق ذات اليد، كما أنهن قد عرفن بموت أبيه، فكلما سألن:

– من أبو الطفل؟.

قالت آمنة:

– هو يتيم.

ومن هى التى تقدر على تحمل فم يزيد من همها؟!.

كان محمد ملتصقا بصدر آمنة، بعد أن أخذته من أم أيمن، وهى بأخذه منها، كانت تريد أن تخفف عنه مرارة الرفض والجفوة، وأن تسقيه من حبها الصامت الذى يمور فى جوفها كالبركان مشتدا متحديا، بعد أن نال الحبيب رفض المرضعات، تتمنى لو أنه يدرك أنه أعظم، وأغلى وأعز، من كل أولئك الأطفال المتدثرين فى الحرير، ولكن إذا كانت آمنة تعرف بهذا، وتوقن بصدقه، من أين لأولئك المرضعات العجفاوات أن يعرفن؟!.

كادت آمنة أن تستدير لتغادر السوق، راجعة بحبيبها، وقد ملأ الدمع عينيها، فكفاها ما لاقت من مهانة، لذا راحت تتمتم لنفسها قائلة:

– والله ما ابنى بحاجة إلى نقاء هواء دياركم، ولا إلى تعلم فصاحتكم، فهو محفوظ من خالقه، وسيعلمه ربه ويربيه فيحسن تعليمه وتربيته.

ولكن مع استدارتها للرحيل، انتبهت إلى أن تلك المرضعة العجفاء التى لم تحول عينيها لحظة عن محمد، تشير إليها فى تردد، لكى تقبل عليها.

كانت حليمة منذ وفدت إلى السوق، ترغب فى أخذ محمد، ولكن: حمارها الأعجف، وناقتها المتهالكة، ومعدتها الخاوية، وبكاء ابنها الذى لا يجد فى ثدييها ما يسكت جوعه؛ كل هذا كان يمنعها من الإقدام على تنفيذ ما تريد، ولكنها فى النهاية لم تستطع أن تقاوم، ومدت يديها تتناوله من أمه فى لهفة وشوق، لا تدرى لهما سببا، فلقد حنت إليه كحنينها إلى ابنها أو أشد.

حين استقر الحبيب محمد على صدر حليمة، شعرت بالأسف لأجله، فلكم كانت تتمنى لو أن حالها كان خيرا مما هى فيه، لتستطيع أن تغدق عليه من الخير تعبيرا عن تعلقها به؛ ولقد تمنت آمنة – فى تلك اللحظة – لو أن لديها الكثير من الزاد لتغدق به على تلك التى أحبت ابنها!!.

كان الحياء يلجم لسان المرأتين، فلم تنطقا بكلمة، وإن تبادلتا نظرات تفيض بالخجل والشفقة، ولكن قلب آمنة لم يطاوعها على طول الصمت، وقد بدأت المرضعات يعلن بالرحيل، قالت فى رجاء:

كونى له خير أم، وإنك ورب البيت لن تكونى على أخذه نادمة.

ضمته حليمة بالإخلاص إلى صدرها، وكأنها تدعوها لأن تطمئن، ففاض صدرها منتفضا بالحياة، حتى إنها لم تعد تحتمل فورة اللبن، فألقمت اليتيم ثديها فرضع وارتوى، وهى ذاهلة مما اعتراها، وآمنة ترقب ما يحدث، وقد أضاء وجهها بنور الرضا، واقتربت تربت على كتف حليمة، وهى تعيد ما قالت مؤكدة:

– ألم أقل لك، إنك لن تكونى على أخذه نادمة.

حيتها حليمة بابتسامة، واستدارت تركب حمارها، لتلحق بمن سبقوها عائدين إلى مضاربهم، ولم تنصرف آمنة إلا بعد أن غابت حليمة ومحمد عن عينيها، وإن لم يغب الحبيب عن فؤادها.

انطلقت الأتان كالريح بحليمة وولدها، وهى فى عجب مما يحدث لها من خوارق منذ أخذت الطفل اليتيم: فها هو ذا صدرها قد فاض باللبن بعد أيام من الجدب، ثم ها هو ذا أتانها تلحق بكل من سبقتها بالمسير، بل وتسبقهن، بل ها هى ذى ناقتها العجفاء تتابع أتانها نشطة لا تشكو عرجا، ولا تنيخ تعبا من حمل زوجها وابنها. ولم تكن الدهشة والعجب هما حال حليمة وحدها. فلقد أصاب ما يحدث الركب كله بالذهول.

وسبحان مغير الأحوال.

٩

تقول حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية:

– حين رجعنا إلى مضاربنا، ودخلنا دارنا، كان الجوع والعطش قد اشتدا علينا، فقلت لزوجى: قم فالتمس لنا قليلا من اللبن فى ضرع الناقة، فنرتوى ونطعم.

ضحك صاحبى ساخرا من قولى، فأى ناقة تلك التى ستدر اللبن، وهى بالمعجزة استطاعت أن تحمله إلى مضاربنا؟!!.

لكنه أطاعنى وقام على مضض، وحمل معه إناء فارغا، وغادرنا إلى حيث وقفت الناقة، وحين عاد وجدت شدقيه مخضبين باللبن يلتمع عليهما الدسم فهللت.

قال زوجى وهو يناولنى الإناء ممتلئا حتى حافتيه، ويرمق ابنى محمدا بنظرة شاكرة:

– أتعلمين يا حليمة، والله إنك قد جئتنا بنسمة مباركة.

قلت سعيدة:

– والله إنى لأرجو ذلك.

وبتنا ليلتنا بخير حال.

فى الصباح خرج الرعيان بالأغنام إلى الأرض التى أجدبت، فلم يصيبوا إلا الخيبة والبوار، لكن غنمى حين عادت كانت شبعى، وقد امتلأت ضروعها لبنا، وظل هذا حالها على مدى الأيام: نحلب ونشرب، وما يحلب إنسان من بنى سعد قطرة لبن، فكنا نعطيهم مما يفيض عندنا، فكانوا يزجرون رعيانهم قائلين: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى ابنة أبى ذؤيب.

ومرت بنا الأيام، ونحن على خير حال، ومحمد ابنى لا أجد منه ما ينغصنى، حتى تمنيت لو أضمه ابنا مع ابنى فلا يفارقنى.

وحين شب، بعد عامين، وبلغ سن الفطام، ذهبت إلى أمه وقلت لها:

– ألا تتركين ابنى أرعاه حتى لا يصيبه ما أصاب أهل مكة من وباء؟.

وظللت بها أحاورها، حتى ردته معى.

كان يشب سريعا، وينمو بديعا، حتى فاق نموه نمو أخيه، بل كان أكثر منه فطنة، وأكثر ذكاء، إلى أن كان ذلك اليوم، وقد بلغ من العمر خمس سنين أو يزيد قليلا، وخرج هو وأخوه يرعيان أغنامنا، وما هى إلا سويعات وجاءنى ابنى يتكفأ مرعوبا وقد امتقع لونه، وتقطعت أنفاسه فرقا على أخيه، وقال:

- إن أخى محمدا قد جاءه رجلان فى ثياب بيض، وبعدا به فى الصحراء، ثم شقا بطنه.

فخرجت ومعى أبوه إلى حيث أشار، نولول وننادیه، فوجدناه قد اضجع على الأرض، فحملناه وعدنا به نسأله عمًا ألم به، فأكد ما قال أخوه، وأضاف قائلا إن الرجلين قد غسلا جوفه بالماء والبرد، وأنه لم يشعر لذلك بوجع.

ولم ننم ليلتنا، وبت أنا وصاحبى نتشاور حتى طلع علينا النهار، ثم قر قرارى أنا وزوجى على أن نعيده إلى أمه. قبل أن يظهر عليه سوء مما أصابه به الرجلان.

وحين دخلنا به على أمه، دهشت من ردنا المفاجئ لولدها، وقالت:

- ما حملك على أن تعيديه، وقد كنت حريصة على مكثه عندك؟!.

حاولت أن أتجنب إخبارها بما حدث، حتى لا تتهمنى بإهمال أو تقصير، لكنها اشتدت فى طلب ما خوفنى من إبقائه، فقصصت عليها ما كان، فلم أجد منها فرقا ولا ملامة، بل إنها قالت متسائلة فى استنكار:

- أوقد خشيت أن يكون ما فعل به من الشيطان؟!!.

قلت صادقة:

- هو ذاك.

قالت تطمئننى وتهون على:

- لا بأس عليك ولا عليه، لقد أردت منذ البداية أن أنبئك بما أخبرت عنه، ولكنى سكت فما كنت لتدركى معنى ما أقول، ولكن بعد ما رأيت ما رأيت، وقد أصبحت أما لمحمد، فلا بأس من أن تعلمى: إننى حين حملت به رأيت أنه خرج منى نور، أضاء قصور بصرى بأرض الشام، ثم إننى ما رأيت عنتا ولا مشقة فى حمله، ولم أجد مما تحدثت به من سبقننى إلى الحمل شيئا، فحمله كان يسرا فى يسر، ولقد وقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء، مختونا، نظيفا، لا تشوب جسده أية دماء..

وحين انتهيت من الكلام، أخذت منى ولدى، وقالت لى:

- دعيه وانطلقى راشدة.

وودعت ولدى، وتركته غير راغبة فى تركه، فكأنى ودعت السعادة والخير كله.

(١٠)

استقر المقام باليتيم فى كنف جده عبد المطلب، ولقد وجد الجد فى سلوك الحفيد ما قربه من قلبه، حتى صار أحب إليه من أبنائه، ومن كل أحفاده، وكان يقول عنه:

هذا ابنى محمد.

تعلق محمد بجده تعلقا شديدا، فلم يجد له أبا سواه، فكان لا يفارقه إلا إذا غلبه النعاس، فيأمر عبد المطلب أعمامه فيحمله أحدهم ويذهب به إلى أمه.

ذات يوم، تفقد محمد جده، فلم يجده فى مجلسه بالكعبة، فأخذه الخوف كل مأخذ، وراح يناديه، ثم جرى فى كل درب يبحث عنه، حتى ضل طريقه إلى خارج مكة.

وحين عاد عبد المطلب علم بما حدث لمحمد، فغضب غضبا شديدا من أبنائه لأنهم لم يهدئوا روعه، وأرسل يبحث عنه فى كل مكان، وخرج هو وصاحبه ورقة بن نوفل، يبحثان عنه، حتى أبلغ بأن بعض الرعيان قد عثروا عليه، وأعادوه إلى دار آمنة، فأسرع الجد إليه، وحين أمسك به راح يضمه إلى صدره، ويغطه غطا شديدا، ثم أقسم ألا يبعد عنه ابنه ما عاش.

ولكن عبد المطلب نكث فى عهده بعد أيام قليلات، فلقد كان مضطرا لذلك، بعد ما أبلغته آمنة بأنها ترغب فى أن تصحب ابنها معها لزيارة أهلها بطيبة، ولتزور قبر زوجها الحبيب عبد الله.

لم يكن أمام عبد المطلب إلا أن يجيبها إلى طلبها، فهو يرى أمامه زوجة أخلصت لزوجها كل الإخلاص حتى صارت من شدة الوجد جلدا على عظم، فلعلها واجدة فى زيارة قبر عبد الله ما يهون عليها مصابها، فقال لها:

– والله يا ابنتى، لو بذلت الغالى والنفيس فداء لنقضى لعهدى فلا أبالى، فى سبيل تحقيق ما طلبت، فنعم الزوجة أنت، ونعم الأم، فاذهبى راشدة بابنى أنى شئت.

رحلت آمنة إلى طيبة، ومعها وحيده وجاريتها أم أيمن، وقبل دخولها إلى ديار بنى النجار، زارت قبر عبد الله، وساخ دمعها، وتناثرت نفسها وجدا وحزنا، وشردت وطال شرودها، وحين يكلمها الأهل، ليخرجوها مما هى عليه، فلا حديث لها إلا عن الحبيب عبد الله:

– ماذا قال؟..

– ماذا كان يفعل؟..

– كيف قاد قافلة التجارة؟..

– وبماذا أوصاها قبل أن يرحل؟.

وحين استأذنت فى العودة بابنها إلى جده، مرت فى طريق عودتها بقبر زوجها، فتمكن الحزن منها، وازدادت صمتا على صمتها، وأصبحت فى حال من الشرود، جعلها لا تدرى شيئا عما حولها، ولا حديث لها إلا بهذيان عن الزوج الذى رحل.

تقطع فؤاد محمد ألما، وهو يرى أمه الحبيبة تذوى وتذبل أمام عينيه، فرجاها أن تستمع إلى أم أيمن ويجنحوا إلى الراحة، ولتأكل بعد أن صامت عن الطعام أياما، ولكنها لم تكن تسمعه حتى تستجيب

لرجائه، وواصلت القافلة الحزينة طريق العودة.

وكلما مر يوم، زادت حال آمنة سـوءا، وراحت تنهار وتذبل أمام الصبى، وهـو لا يملك أن يفعل شيئا من أجل إنقاذها، ولا كانت أم أيمن هى أيضا تستطيع شيئا، وهو وهى لا يملكان غير البكاء على الشابة النضرة التى تسرع بها خطى الأيام إلى الموت.

ماتت آمنة.

وحزن عليها محمد حزنا عظيما، فهو للمرة الأولى فى حياته، يدرك الشعور باليتم، ويعرف معنى الفقد، وناحت عليها أم أيمن نواحا هو كالعويل، فهى تدرى ما وراء موت الأم قبل أن ترى ما تمنت لابنها يتحقق، هو شعور لا تعرفه إلا من هن مثل أم أيمن من اللاتى عايشن حياة العبودية، وتعلمن أنه لا سلطان لهن على شىء: لا الابن، ولا الزوج، فهن لا تملكن لهم بقاء أو رحيلا، فأمرهم ملك يمين من يشترونهم من السادة، يبقون من يريدون، ويبيعون ما يشاءون، ولا مبالاة بالنفوس، ولا بالمشاعر، ولا بالأحلام التى يدمرونها بقسوة أفعالهم.

زفرت أم أيمن فى حسرة وألم، وهى تضم محمدا إليها، وتمسح دمعه، قائلة:

– لك الله يا ولدى، لك الله يا محمد.

وابتعدت تحفر الرمال فى ظل جبل، وساعدها محمد ودموعه لا تتوقف، ثم دفنا الأم.

حين دخل الموكب الحزين مكة، أسرع عبد المطلب لاستقبال ابنه، بعد أن شاع فى مكة ما حدث، من الركبان التى مرت بهم، وسبقتهم فى العودة، وأدرك الشيخ بحنكته مدى المأساة التى عاشها محمد، حين نظر إليه، قرأها على وجهه الذى لم تجف عنه الدموع، فقرحت بشرته بخطوط محمرة، وإن أخفى تراب السفر بعضا من شدتها، وتقطع قلب عبد المطلب لكل ما لقيه الصبى من صدمات وأهوال، هو بعد أصغر وأضعف من أن يحتملها، فلقد فقد الأب وهو لم يزل بعد جنينا فى بطن أمه، ثم ها هو ذا يفقد الأم وهو لم يبلغ السابعة من عمره..

ياله من ألم، ويا لها من حياة شديدة القسوة، كتب عليك أن تحياها يا محمد.

انحنى الشيخ يحتضن محمدا، واختلطت دموعهما فى نحيب صامت، ولم يجد الصبى ملجأ إلا بدفن جسده فى ذلك الجسد الفانى ليستشعر الأمان والألفة اللذين افتقدهما منذ ماتت أمه.

ولم يتوقف مسلسل الفقد، إلا لسنتين اثنتين، عاشهما الصبى فى كنف جده عبد المطلب، لا يفترقان بدًا، ثم أرسل الجد ذات يوم يستدعى أبا أبو طالب، وقد شعر بدنو الأجل، وأوصاه بمحمد خيرا، ثم مات بعد أيام قليلة.

وبكاه محمد بكاء مرا..

وحزن عليه حزنا عظيما.

فلقد عرف بموت جده معنى فقد الأب.

وهكذا أطبق اليتم على اليتيم، وهو بعد على أبواب الصبا.